

آيات التكبر والاستكبار في القرآن الكريم

دراسة موضوعية

إعداد الطالبة

رياح مقران عباس

إشراف الأستاذ الدكتور

ابراهيم طه حمودي

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد .. فإن التواضع من أخلاق الكرام، والتكبر من أخلاق اللثام، وقد ذكر القرآن الكريم الاستكبار وبينه وحذر منه لما فيه من مفسد كثيرة ، فمن الناس من يتكبر بعلمه، ويحتقر غيره، ويغضب إذا رده أحد أو نصحه، فيهلك نفسه، ولا ينفعه علمه، ومنهم من يتكبر بحسبه ونسبه، فيفتخر بمنزلة آبائه وأجداده، ويرى الناس جميعاً أقل منزلة منه؛ فيكتسب بذلك الذل والهوان من الله.

ومن الناس من يتكبر بالسلطان والجاه والقوة فيعجب بقوته، ويغتر بها، ويعتدي ويظلم، فيكون في ذلك هلاكه ووباله ، ومنهم من يتكبر بكثرة ماله، فيبذّر ويسرف ويتعالى على الناس؛ فيكتسب بذلك الإثم من الله ولا ينفعه ماله.

ان المتأمل لأخلاق النبي محمد صلى الله عليه وسلم يجد ان خلقه التواضع التام الذي روحه الإخلاص لله والحنو على عباد الله ، ضد أوصاف المتكبرين من كل وجه ، فالتواضع أعظم نعمة أنعم الله بها على العبد ، التواضع يتولد من العلم بالله سبحانه ، ومعرفة أسمائه وصفاته ، ونعوت جلاله ، وتعظيمه ، ومحبته وإجلاله ، ومن معرفته بنفسه وتفصيلها ، وعيوب عملها وآفاتها ، فيتولد من بين ذلك كله خلق هو ” التواضع ” ، وهو انكسار القلب لله ، وخفض جناح الذل والرحمة بعباده ، فلا يرى له على أحد فضلاً ، ولا يرى له عند أحد حقاً ، بل يرى الفضل للناس عليه ، والحقوق لهم قبله ، وهذا خلق إنما يعطيه الله عز وجل من يحبّه ، ويكرمه ، ويقربه.

ومن هذا كانت دراستنا هذه لتخص الاستكبار في القرآن الكريم مبينة مفهومه وصوره وعواقبه فجاءت على تمهيد واربعة مباحث وخاتمة .

درس التمهيد : مفهوم الاستكبار

وخص المبحث الاول : لله سبحانه وتعالى الكبرياء والعظمة

وبين المبحث الثاني : أسباب الاستكبار في القرآن الكريم

وتناول المبحث الثالث : المخصوصون بالاستكبار في القرآن الكريم

وبين المبحث الرابع : عاقبة المستكبرين في الدنيا و الآخرة

وختمنا البحث بخاتمة بينا فيها ابرز النتائج التي توصلنا اليها من بحثنا

نسأل الله تعالى التوفيق فيه انه سميع مجيب.

الباحثة

تمهيد

مفهوم الاستكبار

أولاً: الاستكبار في اللغة: وَالِاسْتِكْبَارُ: الْإِمْتِنَاعُ عَنْ قَبُولِ الْحَقِّ مُعَانِدَةً وَتَكْبَرًا، وهو ان يرى الفرد نفسه كبيراً. (١)

ثانياً: الاستكبار في الاصطلاح: التكبر: هُوَ أَنْ يَرَى الْمَرْءُ نَفْسَهُ أَكْبَرَ مِنْ غَيْرِهِ، والاستكبار: طلب ذلك بالتشبع وَهُوَ التَّزِينُ بِأَكْثَرِ مَا عِنْدَهُ(٢).

والاستكبار: قسمان: أحدهما أن يتحري المرء أن يكون كبيراً وذلك متى كان على ما يجب وفي المحل والوقت الذي يجب غير مذموم. الثاني، أن يتشبع فيظهر من نفسه ما ليس له، وهو مذموم، ومنه ما ورد في القرآن نحو {أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ} (٣)

(١) لسان العرب ، ابن منظور محمد بن مكرم بن علي ، أبو الفضل ، جمال الدين الأنصاري الرويفعي الإفريقي (ت ٧١١هـ) ، ط ٣ ، دار صادر ، بيروت ، ١٤١٤ هـ : (١٢٦/٥) ، مادة : كبر.

(٢) الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية ، أيوب بن موسى الحسيني القريني الكفوي ، أبو البقاء الحنفي (ت ١٠٩٤هـ) ، تحقيق: عدنان درويش - محمد المصري ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، (د.ت/١/٢٨).

(٣) التوقيف على مهمات التعاريف ، زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (ت ١٠٣١هـ) ، ط ١ ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م : (٤٩/١) ، والآية من سورة البقرة : من الآية (٣٤) .

وقال ابو هلال العسكري : (الفرق بين الاستكبار والتكبر : الاول : طلب الكبر من غير استحقاق. والثاني : قد يكون باستحقاق. ولذلك جاز في صفة الله تعالى : المتكبر. ولا يجوز : المتكبر.) (١)

(١) معجم الفروق اللغوية ، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (ت ٣٩٥هـ) ، تحقيق : الشيخ بيت الله بيات ، ومؤسسة النشر الإسلامي ، ط١ ، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين ب «قم» ، ١٤١٢هـ : (٤٩/١).

المبحث الاول

لله سبحانه وتعالى الكبرياء والعظمة

قال تعالى (وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (١).

«فَلِلَّهِ الْحَمْدُ. رَبِّ السَّمَاوَاتِ. وَرَبِّ الْأَرْضِ. رَبِّ الْعَالَمِينَ. وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» ..

ينطلق صوت التحميد. يعلن وحدة الربوبية في هذا الوجود. سمائه وأرضه. وإنسه وجنه. وطيره ووحشه.

وسائر ما فيه ومن فيه. فكلهم في رعاية رب واحد يدبرهم ويرعاهم وله الحمد على الرعاية والتدبير.

وينطلق صوت التمجيد. يعلن الكبرياء المطلقة لله في هذا الوجود. حيث يتصاغر كل كبير. وينحني كل جبار. ويستسلم كل متمرّد. للكبرياء المطلقة في هذا الوجود.

ومع الكبرياء والربوبية العزة القادرة والحكمة المدبرة.. «وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» .. والحمد لله رب العالمين. (٢).

وقال تعالى (هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّبُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ) (١).

(١) سورة الاحقاف: (٣٧).

(٢) في ظلال القرآن ، سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (ت ١٣٨٥هـ) ، ط١٧ ، دار الشروق - بيروت-

القاهرة ، ١٤١٢هـ: (٣٢٣٤/٥)

ان الله تعالى هو «العَزِيزُ. الجَبَّارُ. المُتَكَبِّرُ» .. فهي صفات توحى بالقهر والغلبة والجبروت والاستعلاء. فلا عزيز إلا هو. ولا جبار إلا هو. ولا متكبر إلا هو. وما يشاركه أحد في صفاته هذه. وما يتصف بها سواه. فهو المتفرد بها بلا شريك (٢).

(والمُتَكَبِّرُ البليغ الكبرياء والعظمة. وقيل: المتكبر عن ظلم عباده) (٣).

(والمُتَكَبِّرُ) الذي تكبر بربوبيته فلا شي مثله. وقيل: المُتَكَبِّرُ عَنْ كُلِّ سُوءٍ المُتَعَطِّمُ عَمَّا لَا يَلِيْقُ بِهِ مِنْ صِفَاتِ الحَدَثِ وَالدَّمِّ. وَأَصْلُ الكِبْرِ وَالكِبْرِيَاءِ الِامْتِنَاعُ وَقِلَّةُ الِانْقِيَادِ. وقال حميد بن ثور: عفت مثل ما يعفو الفصيل فأصبحت ... بها كبرياء الصعب وهي ذلول والكبرياء في صفات الله مدح، وفي صفات المخلوقين ذم. وفي الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: (الكبرياء رداي والعظمة إزاري فمن نازعني في واحدٍ منهما قصمته ثم قذفته في النار). وقيل: المُتَكَبِّرُ معناه العالي. وقيل: معناه الكبير لأنه أجل من أن يتكلف كبراً. وقد يقال: تظلم بمعنى ظلم، وتشتت بمعنى شتم، واستقر بمعنى قر. كذلك المُتَكَبِّرُ بمعنى الكبير. وليس كما يوصف به المخلوق إذا وُصِفَ بِتَفَعَّلَ إِذَا نُسِبَ إِلَى مَا لَمْ يَكُنْ مِنْهُ. ثُمَّ نَزَّهَ نَفْسَهُ فَقَالَ: (سُبْحَانَ اللَّهِ) أي تنزيها لجلالته وعظمته عما يُشْرِكُونَ. (٤).

(١) سورة الحشر: (٢٣).

(٢) في ظلال القرآن ، المؤلف: سيد قطب : (٣٥٣٣/٦).

(٣) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت ٥٣٨هـ) ، ٣ط، دار الكتاب العربي - بيروت ، ١٤٠٧ هـ : (٥٠٩/٤).

(٤) الجامع لأحكام القرآن ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت ٦٧١هـ) ، تحقيق : أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش ، ط٢ ، دار الكتب المصرية - القاهرة ، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م : (٤٧/١٨) ،

المبحث الثاني

أسباب الاستكبار في القرآن الكريم

أولاً : الكفر :

ان الابتعاد عن منهج الله ودينه الذي ارتضاه ، والتمسك بالكفر والعناد ليجعل ذلك كله من الانسان مستكبرا على عباد الله ، قال تعالى : (قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْمُونَ أَنْ صَالِحًا مَرْسَلًا مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ) (١).

اختار القرآن لفظة (المأل) وفيها دلالات عظيمة ، يقول الرازي : (أَنَّ الْمَلَأَ عِبَارَةٌ عَنِ الْقَوْمِ الَّذِينَ تَمَلَّئُ الْقُلُوبُ مِنْ هَيْبَتِهِمْ) (٢).

وَمَعْنَى الْآيَةِ : قَالَ الْمَلَأُ وَهُمْ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا، يُرِيدُ الْمَسَاكِينَ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ ، وقد وَصَفَ الْقُرْآنُ أَوْلِيكَ الْكُفَّارَ بِكُونِهِمْ مُسْتَكْبِرِينَ، وَوَصَفَ أَوْلِيكَ الْمُؤْمِنِينَ بِكُونِهِمْ مُسْتَضْعَفِينَ، وَكُونَهُمْ مُسْتَكْبِرِينَ فِعْلًا اسْتَوْجَبُوا بِهِ الدَّمَّ، وَكُونُ الْمُؤْمِنِينَ مُسْتَضْعَفِينَ مَعْنَاهُ: أَنَّ غَيْرَهُمْ يَسْتَضَعُهُمْ وَيَسْتَحْقِرُهُمْ، وَهَذَا لَيْسَ فِعْلًا صَادِرًا عَنْهُمْ بَلْ عَنِ غَيْرِهِمْ، فَهُوَ لَا يَكُونُ صِفَةً ذمَّ حَقَّهُمْ، بَلِ الدَّمُّ عَائِدٌ إِلَى الَّذِينَ يَسْتَحْقِرُونَهُمْ وَيَسْتَضَعِفُونَهُمْ. ثُمَّ حَكَى تَعَالَى أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُسْتَكْبِرِينَ سَأَلُوا الْمُسْتَضْعَفِينَ عَنْ حَالِ صَالِحٍ فَقَالَ الْمُسْتَضْعَفُونَ نَحْنُ مُوقِنُونَ مُصَدِّقُونَ بِمَا جَاءَ بِهِ صَالِحٌ. وَقَالَ الْمُسْتَكْبِرُونَ: بَلْ نَحْنُ كَافِرُونَ بِمَا جَاءَ بِهِ صَالِحٌ، وَهَذِهِ الْآيَةُ مِنْ أَعْظَمِ مَا يُحْتَجُّ بِهِ فِي بَيَانِ أَنَّ الْفَقْرَ خَيْرٌ مِنَ الْغِنَى، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْإِسْتِكْبَارَ إِنَّمَا يَتَوَلَّدُ مِنْ كَثْرَةِ الْمَالِ وَالْجَاهِ،

(١) سورة الاعراف : (٧٥ - ٧٦).

(٢) التفسير الكبير ، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت ٦٠٦هـ) ، ط٣ ، دار إحياء التراث العربي - بيروت ، ١٤٢٠ هـ : (٣٠٧/١٤).

وَالِاسْتِزْعَافُ إِنَّمَا يَحْصُلُ مِنْ قِلَّتِهِمَا، فَبَيَّنَ تَعَالَى أَنَّ كَثْرَةَ الْمَالِ وَالْجَاهِ حَمَلُهُمْ عَلَى التَّمَرُّدِ،
وَالْإِبَاءِ، وَالْإِنْكَارِ، وَالْكَفْرِ، وَقِلَّةَ الْمَالِ وَالْجَاهِ حَمَلُهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ، وَالنَّصْدِيقِ وَالْإِنْقِيَادِ، وَذَلِكَ يَدُلُّ
عَلَى أَنَّ الْفَقْرَ خَيْرٌ مِنَ الْغِنَى. (١).

ثانيا : اتباع الهوى :

لقد اجمعت الأمة أَنَّ إِتِّبَاعَ الْهَوَى يُعْمِي عَنِ الرَّشْدِ وَيُطِيلُ عَنِ الْحَقِّ وَيُطِيلُ الْمُكْتَفَى فِي
الْعَمَى . (٢).

قال تعالى : (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ
آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرَّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغِيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ
بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ) (٣).

ان العدول عن آيات الله وطريق الحق من أسباب التكبر في الأرض ، وان اتباع سبيل
الغي وطريق الشيطان والهوى من اسباب التكبر في الأرض.

إن الله تعالى يعلن عن مشيئته في شأن أولئك الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق،
وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها، وإن يروا سبيل الرشده لا يتخذوه سبيلاً، وإن يروا سبيل الغي
يتخذوه سبيلاً.. إنه سيصرفهم عن آياته فلا ينتفعون بها ولا يستجيبون لها.. آياته في كتاب

(١) ينظر: التفسير الكبير، الرازي: (٣٠٧/١٤)

(٢) موارد الظمان لدروس الزمان، خطب وحكم وأحكام وقواعد ومواعظ وآداب وأخلاق حسان ، عبد العزيز
بن محمد بن عبد المحسن السلطان (ت ١٤٢٢هـ) ، ط٣٠ ، ١٤٢٤ هـ: (٤١٦/٢).

(٣) سورة الأعراف: (١٤٦)

الكون المنظور، وآياته في كتبه المنزلة على رسله.. ذلك بسبب أنهم كذبوا بآياته سبحانه وكانوا عنها غافلين. (١).

وإن هذا النموذج من الناس ليرتسم من خلال الكلمات القرآنية، كأنما نراه بسماته وحركاته! «الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ».. وما يتكبر عبد من عبيد الله في أرضه بالحق أبداً. فالكبرياء صفة الله وحده. لا يقبل فيها شريكاً. وحيثما تكبر إنسان في الأرض كان ذلك تكبراً بغير الحق! وشر التكبر ادعاء حق الربوبية في الأرض على عباد الله، ومزاولة هذا الحق بالتشريع لهم من دون الله وتعبيدهم لهذا التشريع الباطل، ومن هذا التكبر تنشأ سائر ألوان التكبر. فهو أساس الشر كله ومنه ينبعث. ومن ثم تجيء بقية الملامح: «وَأَنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا، وَأَنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغِيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا».. فهي جلبة تجنح عن سبيل الرشد حيثما رآته، وتجنح إلى سبيل الغي حيثما لاح لها كأنما بآلية في تركيبها لا تتخلف! وهذه هي السمة التي يرسمها التعبير، ويطبع بها هذا النموذج المتكبر، الذي قضت مشيئة الله أن يجازيه على التكذيب بآيات الله والغفلة عنها بصرفه عن هذه الآيات أبداً! وإن الإنسان ليصادف هذا الصنف من الخلق بوصفه هذا وسمته وملامحه، فيرى كأنما يتجنب الرشد ويتبع الغي دون جهد منه. ودون تفكير ولا تدبير! فهو يعمى عن طريق الرشد ويتجنبه، وينشرح لطريق الغي ويتبعه! وهو في الوقت ذاته مصروف عن آيات الله لا يراها ولا يتدبرها ولا تلتقط أجهزته إحياءاتها وإيقاعاتها! وسبحان الله! فمن خلال اللمسات السريعة في العبارة القرآنية العجيبة ينتفض هذا النموذج من الخلق شاخصاً بارزاً حتى ليكاد القارئ يصيح لتوه: نعم. نعم. أعرف هذا الصنف من الخلق.. إنه فلان!!! وإنه للمعني الموصوف بهذه الكلمات!!! وما يظلم الله هذا الصنف من الخلق بهذا الجزاء المردي المؤدي إلى الهلاك في الدنيا والآخرة.. إنما هو الجزاء الحق لمن يكذب بآيات الله ويغفل عنها، ويتكبر في الأرض بغير الحق، ويتجنب سبيل الرشد حيثما رآه، ويهرع إلى سبيل الغي حيثما لاح له! فإنما بعمله جوزي وبسلوكه أورد موارد الهلاك. (٢).

(١) في ظلال القرآن ، سيد قطب: (١٣٧٢/٣).

(٢) المصدر نفسه: (١٣٧٢/٣).

ثالثا : الحسد :

الْحَسَدَ خُلِقَ دَمِيمٌ مَعَ إِضْرَارِهِ بِالْبَدَنِ وَفَسَادِهِ لِلدِّينِ (١).، وقد أمرَ اللهُ تعالى بالإستِعَاذَةِ مِنْ شَرِّهِ، فَقَالَ تَعَالَى: {مَنْ شَرَّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ} (٢).

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: الْحَسَدُ أَوْلُ ذُنُوبِ عَصِيِّ اللهِ بِهِ فِي السَّمَاءِ، يَعْنِي حَسَدَ إِبْلِيسَ لِأَدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ (٣).

والحسد هو من الآفات التي تسير بالانسان الى الهلاك والدمار ، وبالمجتمع الى التفتت والتناحر، وهو من اسباب التكبر والاستكبار ، وقد ذكر القرآن ذلك في صور عديدة منها قوله تعالى : (إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَأِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ) (٤).

نقف امام قوله : (أَسْتَكْبَرْتَ) إذ يقول سبحانه وتعالى لإبليس: تعظمت عن السجود لأدم، فتركت السجود له استكبارا عليه، ولم تكن من المتكبرين العالين قبل ذلك (أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ) يقول: أَمْ كُنْتُ كَذَلِكَ مِنْ قَبْلِ ذَا عُلُوٍّ وَتَكْبُرٍ عَلَى رَبِّكَ (قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ) ، قال إبليس لربه: فعلت ذلك فلم أسجد للذي أمرتني بالسجود له لأنني خير منه وكنتم خيرا لأنكم خلقتني من نار وخلقته من طين، والنار تأكل الطين وتحرقه، فالنار خير منه، يقول: لم أفعل

(١) ينظر: أدب الدنيا والدين ، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (ت ٤٥٠هـ) ، دار مكتبة الحياة ، ١٩٨٦م : (١/٢٦٩)

(٢) سورة الفلق : (٥).

(٣) أدب الدنيا والدين : (١/٢٦٩).

(٤) سورة ص : (٧١ - ٧٧).

ذلك استكبارا عليك، ولا لأنني كنت من العالين، ولكني فعلته من أجل أنني أشرف منه؛ وهذا تقرير من الله للمشركين الذين كفروا بمحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأبوا الانقياد له، واتباع ما جاءهم به من عند الله استكبارا عن أن يكونوا تبعا لرجل منهم حين قالوا: (أُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا) و (هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ) فقص عليهم تعالى قصة إبليس وإهلاكه باستكباره عن السجود لآدم بدعواه أنه خير منه، من أجل أنه خلق من نار، وخلق آدم من طين، حتى صار شيطانا رجيمًا، وحققت عليه من الله لعنته، محذّره بذلك أن يستحقوا باستكبارهم على محمد، وتكذيبهم إياه فيما جاءهم به من عند الله حسداً، وتعظما من اللعن والسخط ما استحقه إبليس بتكبره عن السجود لآدم. (١).

يقول الرازي : (اعْلَمْ أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ ذِكْرِ هَذِهِ الْقِصَّةِ الْمُنْعُ مِنَ الْحَسَدِ وَالْكَبْرِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ إِبْلِيسَ، إِنَّمَا وَقَعَ فِيهَا وَقَعَ فِيهِ بِسَبَبِ الْحَسَدِ وَالْكَبْرِ، وَالْكَفَّارُ إِنَّمَا نَارَعُوا مُحَمَّدًا عَلَيْهِ السَّلَامُ بِسَبَبِ الْحَسَدِ وَالْكَبْرِ، فَاللَّهُ تَعَالَى ذَكَرَ هَذِهِ الْقِصَّةَ هَاهُنَا لِيَصِيرَ سَمَاعُهَا زَاجِرًا لَهُمْ عَنِ هَاتَيْنِ الْخَصْلَتَيْنِ الْمَذْمُومَتَيْنِ وَالْحَاصِلُ أَنَّهُ تَعَالَى رَغِبَ الْمُكَلَّفِينَ فِي النَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ، وَمَنَعَهُمْ عَنِ الْإِصْرَارِ وَالتَّقْلِيدِ وَذَكَرَ فِي تَقْرِيرِهِ أُمُورًا أَرْبَعَةً أَوْلَاهَا: أَنَّهُ نَبَأٌ عَظِيمٌ فَيَجِبُ الْإِحْتِيَاظُ فِيهِ وَالتَّانِي: أَنَّ قِصَّةَ سُؤَالِ الْمَلَائِكَةِ عَنِ الْحِكْمَةِ فِي تَخْلِيْقِ الْبَشْرِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْحِكْمَةَ الْأَصْلِيَّةَ فِي تَخْلِيْقِ آدَمَ هُوَ الْمَعْرِفَةُ وَالطَّاعَةُ لَا الْجَهْلُ وَالتَّكْبُرُ التَّالِي: أَنَّ إِبْلِيسَ إِنَّمَا خَاصَمَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأَجْلِ الْحَسَدِ وَالْكَبْرِ فَيَجِبُ عَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يَحْتَرِزَ عَنْهُمَا، فَهَذَا هُوَ وَجْهُ النَّظْمِ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ، وَاعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الْقِصَّةَ قَدْ تَقَدَّمَ شَرْحُهَا فِي سُورٍ كَثِيرَةٍ، فَلَا فَائِدَةَ فِي الْإِعَادَةِ إِلَّا مَا لَا بُدَّ مِنْهُ) . (٢).

(١) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن ، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (ت ٣١٠هـ) ، تحقيق: أحمد محمد شاكر ، ط١، مؤسسة الرسالة ، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م: (٢٤٠/٢١).

(٢) التفسير الكبير ، الرازي: (٢٦/ ٤٠٩).

المبحث الثالث

المخصوصون بالاستكبار في القرآن الكريم

اولاً: ابليس:

من اوائل المستكبرين الذين ذكرهم القرآن الكريم هو ابليس وقد ذكر الله تعالى استكباره في مواضع كثيرة منها قوله تعالى: (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ) (١).

وهنا تتبدى خليقة الشر مجسمة: عصيان الجليل سبحانه! والاستكبار عن معرفة الفضل لأهله. والعزة بالإثم. والاستغلاق عن الفهم. (٢).

قال السمرقندي: (أي امتنع عن السجود تكبراً: معناه أن كبره منعه من السجود). (٣).

وقال محمد سيد طنطاوي: ((أبى واستكبر)) : الإباء: الامتناع عن الفعل أنفة مع التمكن منه. والاستكبار: التكبر والتعاضم والغرور، بمعنى أن يرى الشخص في نفسه علواً على غيره، وهو خلق مذموم (٤).

(١) سورة البقرة: (٣٤).

(٢) في ظلال القرآن: (٥٨/١)

(٣) بحر العلوم ، أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي (ت ٣٧٣هـ) ، (د.ت): (٤٣/١).

(٤) التفسير الوسيط للقرآن الكريم ، محمد سيد طنطاوي ، ط٢ ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، الفجالة ، القاهرة (٩٨/١).

ثانيا: فرعون:

ومن ابرز المتكبرين الذين عاثوا في الارض فسادا (فرعون) وقد ذكره القران الكريم في مواضع كثيرة منها قوله تعالى : (ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ) (١).

يقول الطبري : ((فَاسْتَكْبَرُوا) عن اتباعها، والإيمان بما جاءهم به من عند الله (وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ) يقول: وكانوا قوما عالين على أهل ناحيتهم، ومن في بلادهم من بنى إسرائيل وغيرهم بالظلم، قاهرين لهم.) (٢).

وقال السعدي رحمه الله : ({ فَاسْتَكْبَرُوا } أي تكبروا عن الإيمان بالله واستكبروا على أنبيائه { وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ } أي وصفهم العلو والقهر والفساد في الأرض فلهذا صدر منهم الاستكبار ذلك غير مستكثر منهم) (٣).

ثالثا: قارون:

ويضرب القرآن مثلا آخر للمتكبرين الذين نسوا فضل الله عليهم فتكبروا على الناس (قارون) ، قال تعالى : (إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي

(١) سورة المؤمنون : (٤٦).

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن ، الطبري: (٣٥/١٩).

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (ت ١٣٧٦هـ) ، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق ، ط١، مؤسسة الرسالة ، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠ م (٥٥٢/١).

إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ. وَأَبْغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ، وَلَا تُنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ
كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ، وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ. إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ» .

وفي هذا القول جماع ما في المنهج الإلهي القويم من قيم وخصائص تفرده بين سائر مناهج الحياة. «لا تَفْرَحْ» .. فرح الزهو المنبعث من الاعتزاز بالمال، والاحتفال بالثراء، والتعلق بالكنوز، والابتهاج بالملك والاستحواذ.. لا تفرح فرح البطر الذي ينسي المنعم بالمال وينسي نعمته، وما يجب لها من الحمد والشكران. لا تفرح فرح الذي يستخفه المال، فيشغل به قلبه، ويطيير له لبه، ويتناول به على العباد..

«إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ» .. فهم يردونه بذلك إلى الله، الذي لا يحب الفرحين المأخوذين بالمال، المتباهين، المتناولين بسلطانه على الناس. (١).

«وَأَبْغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ، وَلَا تُنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا» .. وفي هذا يتمثل اعتدال المنهج الإلهي القويم. المنهج الذي يعلق قلب واجد المال بالآخرة. ولا يحرمه أن يأخذ بقسط من المتاع في هذه الحياة. بل يحضه على هذا ويكلفه إياه تكليفا، كي لا يتزهّد الزهد الذي يهمل الحياة ويضعفها.

لقد خلق الله طبيبات الحياة ليستمتع بها الناس وليعملوا في الأرض لتوفيرها وتحصيلها، فتنمو الحياة وتتجدد، وتتحقق خلافة الإنسان في هذه الأرض. ذلك على أن تكون وجهتهم في هذا المتاع هي الآخرة، فلا ينحرفون عن طريقها، ولا يشغلون بالمتاع عن تكاليفها. والمتاع في هذه الحالة لون من ألوان الشكر للمنعم، وتقبل لعطاياه، وانتفاع بها. فهو طاعة من الطاعات يجزي عليها الله بالحسنى.

(١) في ظلال القرآن: (١٣٢٨/٥)

وهكذا يحقق هذا المنهج التعادل والتناسق في حياة الإنسان، ويمكنه من الارتقاء الروحي الدائم من خلال حياته الطبيعية المتعادلة، التي لا حرمان فيها، ولا إهدار لمقومات الحياة الفطرية البسيطة.

«وَأَحْسِنُ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ» .. فهذا المال هبة من الله وإحسان. فليقابل بالإحسان فيه. إحسان التقبل وإحسان التصرف، والإحسان به إلى الخلق، وإحسان الشعور بالنعمة، وإحسان الشكران.

«وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ» .. الفساد بالبغي والظلم. والفساد بالمتاع المطلق من مراقبة الله ومراعاة الآخرة.

والفساد بملء صدور الناس بالحرص والحسد والبغضاء. والفساد بإنفاق المال في غير وجهه أو إمساكه عن وجهه على كل حال.

«إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ» .. كما أنه لا يحب الفرحين.

كذلك قال له قومه: فكان رده جملة واحدة، تحمل شتى معاني الفساد والإفساد: «قَالَ: إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي» ! إنما أوتيت هذا المال استحقاقا على علمي الذي طوع لي جمعه وتحصيله. فما لكم تملون عليّ طريقة خاصة في التصرف فيه، وتتحكمون في ملكيتي الخاصة، وأنا إنما حصلت هذا المال بجهدِي الخاص، واستحققتَه بعلمي الخاص؟ إنها قولة المغرور المطموس الذي ينسى مصدر النعمة وحكمتها، ويفتنه المال ويعميه الثراء. (١).

وهو نموذج مكرر في البشرية. فكم من الناس يظن أن علمه وكده هما وحدهما سبب غناه. ومن ثم فهو غير مسؤول عما ينفق وما يمسك، غير محاسب على ما يفسد بالمال وما يصلح، غير حاسب لله حسابا، ولا ناظر إلى غضبه ورضاه! والإسلام يعترف بالملكية الفردية، ويقدر الجهد

(١) في ظلال القرآن: (١٣٢٩/٥).

الفردى الذى بذل فى تحصيلها من ووجه الحلال التى يشرعها ولا يهون من شأن الجهد الفردى أو يلغيه. ولكنه فى الوقت ذاته يفرض منهاجا معيناً للتصرف فى الملكية الفردية- كما يفرض منهاجا لتحصيلها وتنميتها- وهو منهج متوازن متعادل، لا يحرم الفرد ثمرة جهده، ولا يطلق يده فى الاستمتاع به حتى الترف ولا فى إمساكه حتى التقدير ويفرض للجماعة حقوقها فى هذا المال، ورقابته على طرق تحصيله، وطرق إنفاقه والاستمتاع به. وهو منهج خاص واضح الملامح متميز السمات. (١).

ولكن قارون لم يستمع لنداء قومه، ولم يشعر بنعمة ربه، ولم يخضع لمنهجه القويم. وأعرض عن هذا كله فى استكبار لئيم وفى بطر ذميم.

ومن ثم جاءه التهديد قبل تمام الآية، رداً على قولته الفاجرة المغرورة:

«أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا؟ وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ» .

فإن كان ذا قوة وذا مال، فقد أهلك الله من قبله أجيالاً كانت أشد منه قوة وأكثر مالا. وكان عليه أن يعلم هذا. فهذا هو العلم المنجى. فليعلم. وليعلم أنه هو وأمثاله من المجرمين أهون على الله حتى من أن يسألهم عن ذنوبهم. فليسوا هم الحكم ولا الأَشهاد! «وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ» ! ذلك كان المشهد الأول من مشاهد القصة، يتجلى فيه البغي والتناول، والإعراض عن النصح، والتعالي على العظة، والإصرار على الفساد، والاعتزاز بالمال، والبطر الذى يقعد بالنفس عن الشكران.

ثم يجيء المشهد الثانى حين يخرج قارون بزينة على قومه، فتطير لها قلوب فريق منهم، وتتهاوى لها نفوسهم، ويتمنون لأنفسهم مثل ما أوتي قارون، ويحسون أنه أوتي حظاً

(١) فى ظلال القرآن : (١٣٣٠/٥)

عظيما يتشبهاه المحرومون. ذلك على حين يستيقظ الإيمان في قلوب فريق منهم فيعتزون به على فتنه المال وزينة قارون، ويذكرون إخوانهم المبهورين المأخوذين، في ثقة وفي يقين: «فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا: يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ. إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ. وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ: وَيَلَكُمْ! ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا، وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ»

وهكذا وقفت طائفة منهم أمام فتنه الحياة الدنيا وقفة المأخوذ المبهور المتهاوي المتهافت، ووقفت طائفة أخرى تستعلي على هذا كله بقيمة الإيمان، والرجاء فيما عند الله، والاعتزاز بثواب الله. والتقت قيمة المال وقيمة الإيمان في الميزان:

«قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا: يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ. إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ» ..

وفي كل زمان ومكان تستهوي زينة الأرض بعض القلوب، وتبهر الذين يريدون الحياة الدنيا، ولا يتطلعون إلى ما هو أعلى وأكرم منها فلا يسألون بأي ثمن اشترى صاحب الزينة زينته؟ ولا بأي الوسائل نال ما نال من عرض الحياة؟ من مال أو منصب أو جاه. ومن ثم تتهافت نفوسهم وتتهاوى، كما يتهافت الذباب على الحلوى ويتهاوى! ويسيل لعابهم على ما في أيدي المحظوظين من متاع، غير ناظرين إلى الثمن الباهظ الذي أدوه، ولا إلى الطريق الدنس الذي خاضوه، ولا إلى الوسيلة الخسيسة التي اتخذوها. (١).

فأما المتصلون بالله فلهم ميزان آخر يقيم الحياة، وفي نفوسهم قيم أخرى غير قيم المال والزينة والمتاع. وهم أعلى نفسا، وأكبر قلبا من أن يتهاوا ويتصاغروا أمام قيم الأرض جميعا. ولهم من استعلائهم بالله عاصم من التخاذل أمام جاه العباد. وهؤلاء هم «الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ». العلم الصحيح الذي يقومون به الحياة حق التقويم: «وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ: وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ

(١) في ظلال القرآن: (١٣٣٢/٥).

خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا، وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ» . ثواب الله خير من هذه الزينة ، وما عند الله خير مما عند قارون. والشعور على هذا النحو درجة رفيعة لا يلقاها إلى الصابرون.. الصابرون على معايير الناس ومقاييسهم. الصابرون على فتنة الحياة وإغرائها. الصابرون على الحرمان مما ينتشاه الكثيرون. وعند ما يعلم الله منهم الصبر كذلك يرفعهم إلى تلك الدرجة. درجة الاستعلاء على كل ما في الأرض، والتطلع إلى ثواب الله في رضى وثقة واطمئنان. (١).

وعند ما تبلغ فتنة الزينة ذروتها، وتتهافت أمامها النفوس وتتهاوى، تتدخل يد القدرة لتضع حدا للفتنة، وترحم الناس الضعاف من إغرائها، وتحطم الغرور والكبرياء تحطما. ويجيء المشهد الثالث حاسما فاصلا: «فَحَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ، فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ» ..

هكذا في جملة قصيرة، وفي لمحة خاطفة: «فَحَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ» فابتلعت وابتلعت داره، وهوى في بطن الأرض التي علا فيها واستطال فوقها جزاء وفاقا. وذهب ضعيفا عاجزا، لا ينصره أحد، ولا ينتصر بجاه أو مال.

وهوت معه الفتنة الطاغية التي جرفت بعض الناس وردتهم الضربة القاضية إلى الله وكشفت عن قلوبهم قناع الغفلة والضلال. وكان هذا المشهد الأخير: «وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ: ! وَيَكَانَ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ. لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا. ! وَيَكَانَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ» .. وقفوا يحمدون الله أن لم يستجب لهم ما تمنوه بالأمس، ولم يؤتهم ما آتى قارون. وهم يرون المصير البائس الذي انتهى إليه بين يوم وليلة. وصحوا إلى أن الثراء ليس آية على رضى الله. فهو يوسع الرزق على من يشاء من عباده ويضيقه لأسباب أخرى غير الرضى والغضب. ولو كان دليل رضاه ما أخذ قارون هذا الأخذ الشديد العنيف. إنما هو الابتلاء الذي قد يعقبه البلاء. وعلموا أن الكافرين لا يفلحون. وقارون لم يجهر

(١) في ظلال القرآن : (١٣٣٣/٥).

بكلمة الكفر ولكن اغتراره بالمال، ونسبته إلى ما عنده من العلم جعلهم يسلكونه في عداد الكافرين، ويرون في نوع هلاكه أنه هلاك للكافرين.

ويسدل الستار على هذا المشهد. وقد انتصرت القلوب المؤمنة بتدخل القدرة السافرة، وقد رجحت قيمة الإيمان في كفة الميزان.. ثم يأخذ في التعقيب في أنسب أوان: «تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا. وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ». تلك الآخرة التي تحدث عنها الذين أوتوا العلم. العلم الحق الذي يقوم الأشياء بقيمتها الحقيقية. تلك الدار الآخرة العالية الرتبة البعيدة الآفاق. تلك الدار الآخرة «نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا».. فلا يقوم في نفوسهم خاطر الاستعلاء بأنفسهم لأنفسهم ولا يهجم في قلوبهم الاعتزاز بذواتهم والاعتزاز بأشخاصهم وما يتعلق بها. إنما يتوارى شعورهم بأنفسهم ليملاها الشعور بالله، ومنهجه في الحياة. أولئك الذين لا يقيمون لهذه الأرض وأشياءها وأعراضها وقيمها وموازينها حسابا. ولا يبغون فيها كذلك فسادا. أولئك هم الذين جعل الله لهم الدار الآخرة. تلك الدار العالية السامية.

«وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ» الذين يخشون الله ويراقبونه ويتحرجون من غضبه ويبتغون رضاه.(١).

رابعاً: هامان:

ومن قوافل المستكبرين (هامان) ولاشك انه وزير سوء لفرعون وقد شاركه في جرائمه ، وايده في كفره ، وتابعه في استكباره ، قال تعالى : (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ * فَأَخَذْنَاهُ

(١) في ظلال القرآن : (٥/١٣٢٧).

وَجُنُودَهُ فَبَبَدَّتْهُمْ فِي الْيَمِّ فَأَنْظُرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ * وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَثْمَةً يُدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ
الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ * وَأَتَّبَعْنَا لَهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (١).

وهامان وزيره ومدبر رعيته فأجعل لي أي من الآجر صرحاً أي قصراً رفيعاً إلى السماء
لعلِّي أطلع إلى إله موسى يعني العلي الأعلى، تبارك وتعالى وإني لأظنُّه من الكاذبين أي في دعواه
الألوهية، والعلو لباري الأرض والسموات. ورحمة أي بالإرشاد إلى العمل الصالح لعلهم يتذكرون
أي فيتعظون به ويهتدون بسببه. (٢).

يعني أنه جمع قومه ونادى فيهم معلنا بذلك. فانتقم منه بما جعله عبرة لمن اعتبر فأوقد
لي يا هامان على الطين أي ناراً، فأخذ منه آجراً، ولم يقل (اطبخ لي الآجر وأخذته) لأن هذه
العبارة أحسن طباقاً لفصاحة القرآن وعلو طبقته، وأشبهه بكلام الجبابة. (٣).

خامساً: قوم عاد وثمود واقوام اخرى:

ومثلما ذكر القرآن أفراداً مستكبرين ذكر اقواماً مستكبرة كقوم عاد وثمود وغيرهما ، قال
تعالى : (فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي
خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِيسَاتٍ
لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ) (٤).

(١) سورة القصص: (٣٨ ، ٤٢).

(٢) محاسن التأويل ، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (ت ١٣٣٢هـ) ، تحقيق
: محمد باسل عيون السود ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٨ هـ : (٥٢٤/٧).

(٣) محاسن التأويل ، القاسمي : (٥٢٤/٧).

(٤) سورة فصلت: (١٥ - ١٦).

لقد تكبر قوم عاد على سيدنا هود عليه السلام والذين آمنوا معه ، وظنوا أنهم أقوى الأقوياء ، وغفلوا عن قدرة الخالق الأعلى وهو القوي الأعظم وأنكروا آيات الله ، فماذا كان مصيرهم؟ فاجأهم الحق بإرسال ريح ذات صوت شديد في أيام كلها شؤم ليزيقهم عذاب الهوان والخزي والذل في هذه الدنيا ، ويقسم الحق بأن عذاب الآخرة أشد خزيًا؛ لأنهم في هذا اليوم لا يجدون ناصرًا لهم لأنهم كفروا بالذي ينصف وينصر وهو الحق جلّت قدرته . (١).

وقوله تعالى في قوم ثمود : (وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُّوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأْنَا فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سَهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَادْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ) (٢).

وهكذا هو حال المتكبرين نهايتهم الهلاك والخسران .

(١) تفسير الشعراوي (الخواطر) ، محمد متولي الشعراوي (ت ١٤١٨هـ) ، مطابع أخبار اليوم (د.ت) : (٣٦٢٣/٦).

(٢) سورة الاعراف : (٧٣ - ٧٨) .

المبحث الرابع

عاقبة المستكبرين في الدنيا والآخرة

أولاً: عاقبة المستكبرين في الدنيا:

أما في الدنيا فإن الله تعالى يصرف هؤلاء المتكبرين المتجبرين عن فهم آياته القائمة في الآفاق وفي أنفسهم (سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق) (١).

قال السعدي (رحمه الله) : { سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ } أي : عن الاعتبار في الآيات الأفقية والنفسية ، والفهم لآيات الكتاب { الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ } أي : يتكبرون على عباد الله وعلى الحق ، وعلى من جاء به ، فمن كان بهذه الصفة ، حرمه الله خيراً كثيراً وخذله ، ولم يفقه من آيات الله ما ينتفع به ، بل ربما انقلبت عليه الحقائق ، واستحسن القبيح . (٢).

ومن عقوبة المتكبر في الدنيا أنه يخسف به كما ورد قصة قارون ، قال تعالى : { فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ } (٣).

وقال صلى الله عليه وسلم : (بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فِي حُلَّةٍ ، تُعْجِبُهُ نَفْسُهُ ، مُرَجِّلٌ جُمَّتَهُ ، إِذْ حَسَفَ اللَّهُ بِهِ ، فَهُوَ يَتَجَلَّجَلُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) (٤).

(١) سورة الاعراف: (١٤٦).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي: (٣٠٢/١).

(٣) سورة القصص: (٨١).

(٤) صحيح البخاري ، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي ، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر ، ط١ ، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) ، ١٤٢٢هـ: (١٤١/٧) ، رقم : (٥٧٨٩) ، بَابُ مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ مِنَ الْخِيَلَاءِ .

قال مصطفى البغا في تعليقه على هذا الحديث : (رجل) من الأمم السابقة. (حلة) ثوبان من نوع واحد. (تعجبه نفسه) ينظر إليها بعين الكمال وينسى نعمة الله تعالى عليه محتقرا لما سواه من الناس (مرجل جمته) مسرح رأسه والجمة هي الشعر الذي يتدلى إلى الكتفين أو هو مجمع شعر الرأس. (خسف) غارت به الأرض وغيبه الله فيها (يتجلجل) يتحرك وينزل مضطربا وفي رواية (يتجلل) تغطيه الأرض] (١).

كذلك من عقوبة المستكبرين في الدنيا الحرمان من محبة الله ، قال تعالى : (لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ) (٢).

ثانيا: عاقبة المستكبرين في الآخرة :

ذكر القرآن الكريم عقوبة الكافرين في الآخرة في آيات كثيرة وهو العذاب الاليم في نار جهنم جزاء تكبرهم ، قال تعالى : وَسَبِّقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُرْمًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ * قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبئسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ) (٣).

قال القرطبي : (قَالَ وَهَبُ: تَسْتَقْبِلُهُمُ الزَّبَانِيَةُ بِمَقَامِعَ مِنْ نَارٍ فَيَدْفَعُونَهُمْ بِمَقَامِعِهِمْ، فَإِنَّهُ لَيَقَعُ فِي الدَّفْعَةِ الْوَّاحِدَةِ إِلَى النَّارِ بَعْدَ رِبْعَةِ وَمَضْر. " فَبئسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ") (٤).

(١) هامش صحيح البخاري ، شرح وتعليق د. مصطفى ديب البغا أستاذ الحديث وعلومه في كلية الشريعة - جامعة دمشق: (١٤١/٧) ، رقم: (٥٧٨٩) ، بَابُ مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ مِنَ الْخِيَلَاءِ.

(٢) سورة النحل: (٢٣).

(٣) سورة الزمر: (٧١-٧٢).

(٤) الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي: (٢٨٤/١٥).

وَعَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الدَّرِّ فِي صُورِ الرَّجَالِ يَغْشَاهُمْ الدُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَيَسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّى بُولَسَ تَعْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْيَارِ يُسْقَوْنَ مِنْ عَصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ طَيِّبَةً الْخَبَالِ» (١).

كما انهم يحرمون من النظر الى وجه الله الكريم، فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خِيَلًا، لَمْ يَنْظُرِ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (٢).

(١) سنن الترمذي ، محمد بن عيسى بن سَوْرَةَ بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (ت ٢٧٩هـ)

تحقيق وتعليق: إبراهيم عطوة عوض المدرس ، ط٢، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر ،
١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م: (٦٥٥/٤) ، رقم: (٢٤٩٢).

(٢) صحيح البخاري: (٦/٥) ، رقم: (٣٦٦٥) ، بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا».

الخاتمة

بعد الانتهاء من دراستنا للاستكبار تبين لنا ما يأتي :

١. أن الْكِبْرِيَاءُ فِي صِفَاتِ اللَّهِ مَدْحٌ، وَفِي صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ دَمٌّ.
٢. ان الله تعالى هو (الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ) فهي صفات توحى بالقهر والغلبة والجبروت والاستعلاء. فلا عزيز إلا هو. ولا جبار إلا هو. ولا متكبر إلا هو. وما يشاركه أحد في صفاته هذه. وما يتصف بها سواه. فهو المتفرد بها بلا شريك.
٣. ان هناك اسبابا متعددة للاستكبار في القرآن الكريم منها (الكفر ، اتباع الهوى ، الحسد) وكلها تؤدي بالانسان للهلاك .
٤. ان هناك اصنافا متعددة للمستكبرين خصهم القرآن الكريم بالذكر منهم (ابليس ، فرعون ، قارون ، هامان) كما خص القرآن امما كثيرة بهذه الصفة الرذيلة مثل (قوم عاد و ثمود (اضافة الى اقوام اخرى.
٥. ان القرآن الكريم بين عاقبة المستكبرين في الدنيا فإن الله تعالى يصرف هؤلاء المتكبرين المتجبرين عن فهم آياته القائمة فى الآفاق وفى أنفسهم ، ومن عقوبة المتكبرين ايضا أن يخسف الله بهم الارض كما حدث مع قارون ، ومن عقوبة المستكبرين في الدنيا الحرمان من محبة الله تعالى.
٦. ان القرآن الكريم بين عاقبة المستكبرين في الآخرة في آيات كثيرة وهو العذاب الاليم في نار جهنم جزاء تكبرهم ، كما انهم يحرمون من النظر الى وجه الله الكريم ختاماً نسأل الله تعالى ان يجعلنا من عباده الصالحين المتواضعين وان يبعدنا عن التكبر والغرور انه سميع مجيب وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

• بعد القرآن الكريم

١. أدب الدنيا والدين ، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي ، الشهير بالماوردي (ت ٤٥٠هـ) ، دار مكتبة الحياة ، ١٩٨٦م.
٢. بحر العلوم ، أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي (ت ٣٧٣هـ) ، (د.ت.) .
٣. تفسير الشعراوي (الخواطر) ، محمد متولي الشعراوي (ت ١٤١٨هـ) ، مطابع أخبار اليوم (د.ت.) .
٤. التفسير الكبير ، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت ٦٠٦هـ) ، ط٣، دار إحياء التراث العربي - بيروت ، ١٤٢٠ هـ.
٥. التفسير الوسيط للقرآن الكريم ، محمد سيد طنطاوي ، ط٢ ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، الفجالة ، القاهرة .
٦. التوقيف على مهمات التعاريف ، زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (ت ١٠٣١هـ) ، ط١ ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.
٧. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (ت ١٣٧٦هـ) ، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق ، ط١ ، مؤسسة الرسالة ، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

٨. جامع البيان في تأويل القرآن ، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي ، أبو جعفر الطبري (ت ٣١٠هـ) ، تحقيق: أحمد محمد شاكر ، ط١ ، مؤسسة الرسالة ، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.
٩. الجامع لأحكام القرآن ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت ٦٧١هـ) ، تحقيق : أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش ، ط٢ ، دار الكتب المصرية - القاهرة ، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م : ٤٧/١٨.
١٠. سنن الترمذي ، محمد بن عيسى بن سَورة بن موسى بن الضحاك ، الترمذي ، أبو عيسى (ت ٢٧٩هـ) ، تحقيق وتعليق: إبراهيم عطوة عوض المدرس ، ط٢ ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر ، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م.
١١. صحيح البخاري ، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي ، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر ، ط١ ، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) ، ١٤٢٢ هـ.
١٢. في ظلال القرآن ، سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (ت ١٣٨٥هـ) ، ط١٧ ، دار الشروق - بيروت - القاهرة ، ١٤١٢ هـ.
١٣. الكشف عن حقائق غوامض التنزيل ، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد ، الزمخشري جار الله (ت ٥٣٨هـ) ، ط٣ ، دار الكتاب العربي - بيروت ، ١٤٠٧ هـ : ٥٠٩/٤.
١٤. الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية ، أيوب بن موسى الحسيني القريني الكفوي ، أبو البقاء الحنفي (ت ١٠٩٤هـ) ، تحقيق: عدنان درويش - محمد المصري ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، (د.ت).
١٥. لسان العرب ، ابن منظور محمد بن مكرم بن علي ، أبو الفضل ، جمال الدين الأنصاري الرويفعي الإفريقي (ت ٧١١هـ) ، ط٣ ، دار صادر ، بيروت ، ١٤١٤ هـ .

١٦. محاسن التأويل ، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (ت ١٣٣٢هـ) ، تحقيق : محمد باسل عيون السود ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٨ هـ .

١٧. معجم الفروق اللغوية ، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (ت ٣٩٥هـ) ، تحقيق: الشيخ بيت الله بيات، ومؤسسة النشر الإسلامي ، ط١ ، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بـ «قم» ١٤١٢هـ.

١٨. موارد الظمان لدروس الزمان ، خطب وحكم وأحكام وقواعد ومواعظ وآداب وأخلاق حسان ، عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن السلطان (ت ١٤٢٢هـ) ، ط٣٠ ، ١٤٢٤ هـ .